حوار صحفي مع مجلة الأدب الاسلامي

د. محمد عبده يماني

حوارنا في هذا العدد مع أحد الأعلام الإسلاميين وصاحب الكتابات المتعددة في الفكر والثقافة.. إنه معالي الدكتور محمد عبده يماني.. صاحب الأعمال المتنوعة من رواية وقصة وبحوث ودراسات إسلامية ونقدية متعددة.. فإلى هذا الحوار: * معالي الدكتور: كيف ترون الالتزام في الأدب عموما من حيث أهميته ووجوده في الأدب العربي قديما وحديثا؟ -

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلّم على سيدنا محمد وبعد: فالحقيقة أن الأدب والالتزام في الأدب قضية مهمة جدا؛ لأن آداب الشعوب مملوءة بالقيم والمبادئ والمعطيات، فلا بد أن يُحكم الأدب بها جميعا.. ويكون لكل أدب نكهة معينة، وسلوك معين، وشخصية معينة، لها اعتبار قوي في تقسيم الآداب.. وإذا قسّمنا الآداب حسب الأقوام أو المعتقدات نقول: هناك أدب أمريكي وأدب روسي وأدب صيني وأدب ياباني وهكذا.. وعندما نتكلم عن الأدب العربي فأول ما يتبادر إلى الذهن أنه محكوم بقيم الإسلام ومبادئه، للارتباط القديم والقوي بين العروبة والإسلام. ومن الواضح لنا جميعا أن الإسلام أساسا قضيته قضية أخلاقية؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم من أنه من أشجع الناس وأكرمهم لم يوصف في القرآن بالشجاعة أو الكرم وإنما وصف بالأخلاق (وإنك لعلى خلق عظيم). إذا فقضية الإسلام قضية أخلاقية، وجميع الناس في تعاملهم والأدباء في كتاباتهم يلتزمون بهذه القيم التي تميز هذا الدين.. والالتزام بهذا كله لا يعني التضييق على الأدباء، بل يجب أن يعطى لكل أديب إسلامي الحرية الكاملة في أن يكتب ما يشاء وينشر ما يشاء وينقد ما يشاء ويفلسف ما يشاء، لكن ينبغي أن يحكمه الإطار العام لهذا الأدب، وأن يلاحظ من يقرؤه أنه تأدب بآداب الإسلام فيما يكتب * .

كيف تقوّمون الأدب العربي الحديث من حيث درجة الالتزام فيه؟ -

الأدب العربي الحديث ينقسم إلى أقسام مختلفة.. فيه أدب يستظل ويستأنس بتعاليم الإسلام وأخلاقه. ومن الأدب العربي ما يهتم بالقيم العربية، ولا شك أن العروبة والإسلام متلازمان تلازما قويا.. ومنه أيضا ما يمر بفترة حرجة ودقيقة من حيث درجة الالتزام بتعاليم الدين، أو من حيث نوعية القضايا التي التزم بها الأدباء، ومدى ارتباطها أو ابتعادها عن الدين.. ومع ذلك كله فالأدب في كثير من الدول قد بلغ شأنا عظيما وخاصة في مجال الشعر، حيث ظهر هناك الكثير من المبدعين، الذين تعرضوا لقضايا أمتهم، وطرحوا إبداعا قويا ورائعا.. وبعضهم جدّد فيما كتب في ألوان الشعر العربي ومنهم من كتب في المقالة أو في النقد.. ومجمل القول أن الإنسان حينما ينظر إلى ما يجري في العالم العربي ككل يشعر بنوع من الإحباط في بعض المناطق، خصوصا عند الذين لا يتمتعون بالحرية الثقافية. وتقييد الأدباء بهذا الشكل، أو توجيههم لألوان معينة، ضيّق على كثير منهم خاصة في البلاد التي تسلّط فيها الحكام، وقهروا الأدباء، وأخرجوا أنفسهم حتى من دائرة العروبة والإسلام، ووجهوها لخدمة قضايا قطرية وجزئية، بعيدة كل البعد عن الروح العربية الأصيلة وروح الإسلام التي أكرمت العرب وأعزتهم.. وحقيقة فإنني أشعر بسعادة غامرة لما يحدث اليوم على الساحة الثقافية في المملكة العربية السعودية والحمد لله، من تنافس شريف، وعطاء جميل، وأتمنى أن نُعنى أكثر ببناء الذات السعودية منذ المراحل الأولى، ونعمق فيها تعليم اللغة العربية بصورة أقوى، ونربطها بالتراث، حتى ينشأ الشاب في بلادنا على ما نشأ عليه الأجداد * .

اختلف الأدباء والنقاد حول وظيفة الأدب؛ فمنهم من جعله للإمتاع فقط، ومنهم من ارتقى به إلى أهداف تربوية وتأثيرية، فما وجهة نظركم تجاه هذه القضية؟ -

أنا أعتقد أن الأدب يأخذ من هذا وذاك، فهناك من الآداب ما هو للمتعة وما هو للفن والاستمتاع.. ومن الشعراء - طوال التاريخ العربي والإسلامي - من كتب لمجرد الأدب، وهناك من استخدمه لتحقيق أغراض كبرى كتوجهات الأمة وقضاياها.. ورأيي أن الأدب لا يصح أن يحصر في غرض معين، بل يظل متعدد الأغراض والوظائف، ولكن يجب أن يظل أدبا ملتزما بقواعد الأدب، وأن يكون في إطار الأدب العربي الإسلامي، بما له من قيم ومبادئ وأخلاقيات، وعمق وغزارة وآفاق، أما أنه يحصر في غرض معين أو وظيفة معينة فلا أراه بشكل من الأشكال * .

يتردد في بعض الصحف وعلى ألسنة بعض الأدباء والنقاد أن الشعر قد توارى في هذا العصر، وأن الرواية والقصة تقدمتا عليه جماهيريا ونقديا، فماذا تقولون تجاه هذه الأقوال؟ -

هذا رأي، ولكنه يصادم رأيا آخر، يرى أن الرواية والقصة القصيرة غريبان عن المجتمع العربي وذوقه، والعرب أمة شاعرة، ومهما قيل عن هذا التفوق فهو مجرد افتراضات، وهناك من يرى أن العربي لا يتذوق الرواية والقصة كما يتذوق القصيدة وتؤثر فيه. وما يوجد في الساحة اليوم محصور بفترة محددة ستنتهي قريبا.. كل هذه آراء وافتراضات.. لكن إذا نظرنا إلى العالم العربي ككل، نجد أن القصة القصيرة والرواية قد وصلتا إلى مرحلة كبيرة من الإبداع والإتقان، وأن العربي يتذوقهما وينقدهما، كما أن للشعر ساحته ومجالاته الواسعة جدا * ..

لكن هل ترى أن للانقطاع الثقافي بين الدول العربية دورا في ظهور هذا الجدل؟-

بالتأكيد.. لأن عدم تواصل الأقطار العربية ببعضها أورث الجهل بالآداب الأخرى في الأقطار المجاورة، سواء كان شعرا أم نثرا.. إننا لا نعرف عن المغرب العربي وآدابه إلا الشيء القليل، ونحن بالنسبة للمغرب العربي في عداد المجهولين.. فالعرب في حاجة إلى التواصل، والفنون الأدبية الشعرية والنثرية لم تغب، ولكننا لا نعرف عن بعضنا شيئا إلا في نطاق ضيّق وتواصل محصور، وأنا أرى أن المرحلة القادمة تحتاج إلى توسع في الاتصال وأن نستفيد من العصر الذي يسمى عصر الاتصالات بأن تتواصل الدول العربية مع بعضها في جميع المجالات الثقافية * .

نرجو أن تحدثونا عن رأيكم في الرواية العربية واتجاهها– .

الإنتاج الروائي العربي المعاصر يصل إلى درجة من الأصالة تستحق الدراسة والمتابعة، خاصة للرد على المتقولين بأنه فن مستحدث في أدبنا العربي ولا جذور له.. وأن أدبنا الحاضر تطور بفضل ما نقلنا من صور الحضارة الغربية سواء بالنقل أو الترجمة، وقلدناه محاكين.. ثم بدأنا ننتج ألوانا متفردة من هذا الفن الجديد على أدبنا.. والخطأ في هذه المقولة أن الأدب ليس بدعة تنقل وتحتذى ثم تؤصل نفسها عند المقلدين.. وليس قالبا نصب فيه العبارات لتخرج لنا رواية.. إنما الأدب جزء من طبيعة الناس.. وله جذوره وأصوله، ولا شك أن الفن الروائي العربي آخذ في التكامل هذه الأيام.. وذلك بقدرته الإبداعية فيما ينتجه من أعمال روائية، تضع الأديب العربي في مصاف غيره من أدباء العالم المشاركين في التعبير عن آلام الإنسانية.. والنص الإبداعي في أدبنا العربي يتحدد بقدرته على تمثيل التراث الجمالي السابق والإضافة إليه.. كما لاحظت فيما نشر من الروايات العربية ارتباطها بشكل ما بالحركة الاجتماعية.. وواضح أنه لا يزال في أدبنا العربي

إمكانات كامنة، وضحت في بعض القصص القصيرة، وهي تبشر بطاقة روائية في طريقها إلى حيز الوجود.. فالرواية هي أقرب الفنون للحياة.. وقد قرأت شهادة لكاتب من أشهر كتاب الرواية في العالم وهو «ألبرتومورافيا» الكاتب الإيطالي المعروف.. وقد سألته إحدى الصحفيات المصريات خلال مشاركته في مهرجان القاهرة الدولي للكتاب. سألته الصحفية عن رأيه في القصص العربي الحديث، فقال لها: القصص العربية الحديثة؟.. أنتم عندكم أعظم وأحدث قصص عرفه العالم. فسألته عمّن تتكلم؟ اذكر مَنْ منَ القصصيين.. قال لها: (قصص القرآن). هذه شهادة أديب وكاتب كبير، وهو مسيحي ويبلغ من العمر 84 عاما، وله من الخبرة والحنكة والبراعة في كتابة الرواية ما وضعه مع قمم الروائيين العالميين* .

اتجه كثير من الروائيين والروائيات العرب إلى جعل الجنس اتجاها محوريا في البناء القصصي.. ما رأيكم في هذه الظاهرة ومدى تأثيرها؟-

في الحقيقة لا أرى بأي حال من الأحوال أن الجنس أمر محرم، ولا يجوز أن نتطرق إليه أو نتعرض له في رواياتنا؛ لأن الإسلام سواء في القرآن الكريم أو السنة النبوية نبه الأمة إلى هذه القضية، وأوضح بجلاء أن هذه الغريزة البشرية الكامنة أو المتفجرة في بعض الأحيان هي جزء من ذلك التكوين الإنساني.. يمكن تهذيبها وترشيدها وتقويمها. فعندما يكتب كاتب أو كاتبة ويتعرض للون من ألوان الجنس.. هنا تظهر قدرته في معالجة الموضوع بصورة من الواقعية.. وبعد النظر السليم، وعدم تعمد إثارة الغرائز، أو الانحدار بالجنس إلى مستويات لا تتقبلها الطبيعة البشرية السوية.. ولعلنا نلاحظ أن أجمل الروايات التي كتبت عن الجنس لم تتبذل، ولم تسقط في مهاوي التعبير الرديء والتصوير الخاطئ، وإنما سمت بهذا الفن، وهذه الصور الإنسانية، وعبرت عنها أصدق تعبير.. وهناك اللقطات القرآنية الجميلة مثل: {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم} (البقرة 223) {ولقد همّت به، وهمّ بها.. لولا أن رأى برهان ربه} (يوسف 24) {ولقد راودته عن نفسه فاستعصم} (يوسف 32) {أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا} (مريم 20) {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} (البقرة 187) {ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} (البقرة 187) {إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل} (العنكبوت 29) آيات بينات من القرآن الكريم ذكر فيها الجنس في أكثر من موقع بعبارات غاية في السمو والرقي والعلو، لا تخدش الحياء، ولا تثير الغرائز.. فما أحرانا أن نتمثل بقرآننا وسنة نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم * .

كيف نحقق الاتجاه الإسلامي في الرواية دون أن نقع في مزالق المباشرة؟-

ظهرت قصص وروايات موجهة، تساير الروح الإسلامية، والعقلية الإسلامية، ولا تتعارض مع مضامين الشريعة من قصص، مادام المضمون موجها توجيها إسلاميا يخرج بحكمة لا تتعارض ومبادئ الدين الحنيف.. فالأحداث عند أصحاب هذا اللون إنما تخدم هدفا واضحا. وإذا أردنا أن نحقق الاتجاه الإسلامي في الرواية فهناك عدة قضايا يمكن تناولها في قالب قصصي مشوق.. وليس من الضروري ونحن نكتب قصة إسلامية أن نملأها بالشعارات الإسلامية، حتى لا تأخذ صورة الخطب والمواعظ.. إن الفن الحقيقي أنك تجذب الناس إلى القراءة، فأنت تكتب لهم، وتريد الاتصال بهم، لتبلغهم رسالة.. فلا بد إذن أن تتخذ الوسيلة المؤثرة المعبرة التي تجعلهم يقرؤون.. هناك حقيقة لا مفر من ذكرها هنا.. فإن كتب الدراسات الإسلامية والبحوث الإسلامية لا يهتم بها إلا قلة قليلة.. ولكن الذي يهتم به أكثر الناس هو القصص والروايات.. فلو كتبت بطريقة جيدة، وبهدف نبيل يمكن أن تؤدي دورا فاعلا.. ومالنا يذهب نقادنا بعيدا ويتحدثون عما في الآداب الغربية.. من عمق وحبكة وصراع وحيل، وتفاعل.. ومواقف.. وفي القصص القرآني كل مستلزمات الرواية أو القصة الناجحة.. إن القرآن الكريم والأحاديث والسيرة النبوية الشريفة وحياة الصحابة والتابعين، وعظماء المسلمين مصادر غنية جدا للأدب الإسلامي، ولكن البعض ينقبون فيها، ويأخذون بعضا منها، ويقدمونه بأساليب

متشابهة، فتصبح قصصهم نسخا مكررة. لذا فإن الاتجاه إلى الأدب الإسلامي يجب أن يكون أسلوبه متجددا في التعامل مع تلك المصادر الثرية التي لا تنفد. ولكي نحقق الاتجاه الإسلامي في الرواية يجب ألا ننحرف عن مبادئنا القويمة، وأن نبتعد عن العبث الفكري واللامعقول والوجودية، وأن تستمد الرواية مقدماتها من خلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، ومن هنا نكون قد راعينا الحس الإسلامي مع الاستحضار الواعي لمهمة المسلم في الحياة واستبعاد كل ما يمس جوهر العقيدة أو ينال القيم الأخلاقية كما يراها الإسلام * .

نرجو أن تحدثوا القراء عن تجربتكم في إبداع الرواية، وهل هناك توجه إلى إبداع رواية جديدة؟ -

الحقيقة أنني بدأت كتابة القصة القصيرة قبل الرواية منذ سنوات الدراسة المتوسطة، وكنت أيامها في مدارس الفلاح، وأدرس في المسجد الحرام، وكتبت بعض القصص القصيرة من واقع المجتمع، وأكرمني الله سبحانه وتعالى برجل مربٍّ فاضل هو الأستاذ عبدالرزاق بليلة، والذي كان يتابع ويصحح ويقوّم أعمالنا.. أنا وبعض الأدباء الكبار اليوم أمثال الأستاذ عبدالله جفري، والأستاذ الشاعر محمد صالح باقطمة، والأستاذ محمد جميل فاضل، والأستاذ عبدالكريم نيازي، ومجموعة من الصفوة. ثم.. خلال تلك الفترة حاولت كتابة بعض الروايات، عندما كنت في جامعة الملك سعود.. فكتبت أول رواية وهي «اليد السفلى» تروي قصة طفل جاء من القرى في غامد وزهران، وقدم إلى مكة، وعاش أجواء مكة ثم كان طموحا، فدرس ونال درجات عليا بعد ذلك.. وعاد ليجد الأسرة التي كان يعمل عندها، وقد تدهورت أحوالها.. فدعته مروءته إلى الاتصال بهم والسؤال عنهم.. ثم تقدم يخطب ابنتهم وكأن الناس في الحارة استكثروا هذا الأمر.. لأن هذا الخادم تقدم ليخطب الفتاة التي كانت سيدته في يوم من الأيام.. ولكن هذه الفتاة قدرت هذا الحب وتزوجته.. بعدها كتبت قصة «مشرد بلا خطيئة» ثم توالت العمليات فكتبت رواية «فتاة من حائل»، و«لا تطرق الباب مرة أخرى» و«جراح البحر» و«كرستينا» ومجموعة روايات أخرى مختلفة.. والحمد لله أنها لقيت في ذلك الوقت بعض الرواج، ولكني لم أكن محترفا في كتابة الرواية.. وقد عدت في الوقت الحالي إلى كتابة بعض القصص، فكتبت مجموعة قصص جديدة منها «المطرقة والجدار» وهي تحكي عن قصة فتاة سافرت إلى أوروبا.. وقصة «دريشة عبدالحسين» تتكلم عن الأحداث الأخيرة في المنطقة، ومجموعة قصص أخرى، ولكني أمارسها بين وقت وآخر كمتنفس.. كما يتنفس الشعراء في قصائدهم وكلما أحكمت ظروف العمل طوقها حولي، أو عمدت إلى تضييق الخناق عليَّ.